الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين

تأليف: مصطفى نصر المسلاتي

صدر هذا الكتاب عن دار إقرأ التابعة لجمعية الدعوة الإسلامية بطرابلس في عام 1986 ويقع في 288 صفحة من القطع المتوسط. والمؤلف: مصطفى نصر المسلاتي معروف في الوسط الثقافي العربي الليبي، ككاتب وباحث وصحفي صدرت له عدة كتب كما نشر مجموعة كبيرة من الدراسات والبحوث والمقالات، تناول فيها قضايا اسلامية وفلسفية واجتماعية وأدبية، وهذه الدراسة، موضوع عرضنا، هي أطروحة ماجستير بالفلسفة تقدم بها المؤلف إلى كلية التربية - قسم التفسير والاجتماع -، بجامعة الفاتح بطرابلس منذ بضع سنوات، وأهمية هذه الأطروحة أو هذا الكتاب، تكمن في أنه يسلط فيه الضوء على الاستشراق المعادي للإسلام والعروبة، كما خصص فصولاً منه للحديث عن الاستشراق الإيطالي والتبشير المسيحي الإيطالي الذي سبق أو رافق الاستعمار الفاشيستي للأرض العربية الليبية في النصف الأول من هذا القرن ممهداً أو ممكناً لهذا الاستعمار. ويُعرّف الأستاذ المسلاتي معنى الاستشراق بقوله: «إن معنى الاستشراق هو معرفة الشرق ودراسته، ويرتبط بطبيعة الروح الغربي المتطلع إلى خارج مجاله الثقافي والمعرفي بدافع القوى المتولدة عن وعيه بالعالم في التاريخ الحديث، وهو في مختلف ظواهره صورة من صور اصطدام وعي الغرب بعالم غير عالمه، وكتحليل لهذه النقطة فإن الاستشراق هو علم مرتبط بالإيديولوجية الغربية، في شكل قوة متنامية رافقت التطور المادي الهائل منذ بداياته، وهو أيضاً رغبة ملحّة لمعرفة هذا الشيء المجهول وهو الشرق، لأنه أي الشرق، ألِف قوة هائلة أفزعت الغرب وهدّدته، وبالتالي فإن الصدام المحتدم بين الحضارات سيولّد أنشطة علمية ثقافية، هدفها تحليل الآخر ومعرفته، ومعرفة خصائص تكوينه الروحي والإيديولوجي والمادي، ومن هنا فإن الاستشراق هو حصيلة هذا الوعي على الشرق ويتضمن عموماً نظرة انتقاص وربما ازدراء لخصوصية الشرق وإنجازاته الحضارية».

ويؤكد المؤلف أن هدف دراسته هو تعرية المسوح التي تخفى تحتها المستشرقون، وتسليط الضوء على أهدافهم وأغراضهم الحاقدة وإن كانوا كسوها رداء العلم الموضوعي المنزه عن الغرض والغاية الخبيثة، كما أن دراسته ليست دفاعاً عن العروبة والإسلام أو انجراراً لمعارك خلقوها في أوهامهم وأحلامهم، فيقول في هذا الخصوص: «لقد حاول بعض هؤلاء المستشرقين، أن يوهمونا بأن الإسلام في حاجة لأصوات ترفع عقيرتها لكي تدلي بأوراقها لمصلحة الإسلام ذاته، وقد تصوروا

أنهم وضعوه في حلبة الانتخابات العامة أمام الرأي العام، فأوهمونا أن نقوم بمهمة التصفيق الحار كلما ارتفعت أقلام من الغرب أو الشرق تقرض الإسلام قرضاً حسناً، وأرادوا أيضاً أن نغرق في بحور الغثيان أو الغضب كلما ظهرت زوابع من التنديد (المنهجي) لكي نعسكر داخل قلاعنا وبواباتنا نغلي من شدة الغضب كلما رمتنا رماحهم الملتهبة، وتكسرت النصال على النصال، ونحن نغرق عاطفة ونتلظّى غضباً، فليس من المنطق أن نظل هكذا، كالأوتار المشدودة يعزف الغرب وعلماؤه علينا أنغامه المحببة حسب النوتة المعدة سلفاً، لأن هذا من واجبهم، وهو من صميم عملهم وواقعهم، بل من متطلبات خططهم الإستراتيجية الأوروبية في مراحل تطورها».

ويضيف المؤلف «إن اليقظة والحذر يُحتّمان على المختصين في هذا المجال، أن يعوا جيداً تلك الدراسات التي تحاول الاكتساء بثوب المنهجية العلمية الحديثة، فالمنهج [الفيلولوجي] والمناهج الماديّة لبحث ودراسة التراث والتاريخ لا تعني أنها تلتزم بالمنهجية العلمية حتى النهاية، وكما فعل المنهج ،الفيلولوجي عندما استُخدم في فهم الفلسفة الإسلامية مثلاً، فقد نتج عنه القياس الخاطىء الذي ربط الفلسفة الإسلامية بالفلسفة اليونانية اعتماداً على فرضيات مسبقة حاولوا التدليل على صحتها من خلال فهم النصوص المترجمة، ومن ثم تجاهل معظم الباحثين أهم العوامل والخصائص الذاتية والموضوعية التي قامت عليها أساساً حركة الفكر الفلسفي في الإسلام».

ويرى الأستاذ المسلاتي أيضاً أن الإنسان العربي الذي يُواجه مستقبلاً وحاضراً محكوماً بأطرٍ خارجيةٍ وخارجة عن إرادته لا يفيده التغنّي بأمجاد الماضي، ولا يُفيده أيضاً الانسلاخ من هذا الماضي، وإنما الذي يفيده أن يرفض أنشطة الغربيين وسننهم التي كبلته بها، وأجبرته على أن يخوض صراعاً مريراً مع القوى الخارجيّة المتنامية من حوله، وهو غير مزدوج الشخصية، وأن يفرز مضاداته الحيوية من طبيعته هو لا من مواقف الإثارة واستجاباتها التي أوهنته.

ويبحث المؤلف في الفصل الأول من كتابه ملامح الاستشراق التاريخية ومدى تأثير الفكر الإسلامي على أوروبا، ودور العرب الحضاري في تقديم هذا الفكر في شتى مناحيه، وأشار إلى أشهر العلماء الذين اضطلعوا بنقل الفكر الإسلامي العربي كضرورة من ضرورات وشروط النهضة، ثم الدراسات الغربية الإسلامية والصورة الغربية لها بكون أن الإسلام يؤلف خطراً يهدد كيان أوروبا، وما لحق ذلك إبان القرون الوسطى من تشويه متعمد استهدف الإسلام كدين والعرب كأمة وتهيئة الرأي العام الغربي من أجل تفجّر الحرب العِقْديّة ضدّ الإسلام تحت ستار الدفاع عن المسيحية سميت فيما بعد بحرب استرداد الأرض الإسبانية إنطلاقاً من أن:

1 - الإسلام يؤلف بنيّة سياسية وإيديولوجية عدائية.
2 - إنه حضارة متميّزة ومختلفة.
3 - وهو منطقة إقتصادية مهمّة.

وفي إطار التعبئة المعنوية أخذ كثير من القناصل الأوروبيّين والكتاب بتحويل كل انطباعاتهم عن بلاد الإسلام إلى متخصصين لنشرها وإذاعتها بين عامة الناس فأصبحت صورة المسلمين: عبدة الأوثان، ومحمد في نظرهم ساحر عظيم، وكما أشار المؤلف إلى أغنية رولان كرمز لتفاقم سوء الفهم الشعبي الأوروبي للإسلام والتحريض على كراهيته.

وفي الفصل الثاني يتطرق المؤلف إلى موضوع أثر الغرب على الحضارة الإسلامية متمثلاً هذا التأثير منذ بدايات إنشاء الغرب في جامعاته وكلياته أقساماً للدراسات الشرقية تشمل كل التخصصات، وجنّد لهذا الأمر المتخصصين والمهتمين بالإسلام وحضارته، وقد اختار المؤلف عينّات مختلفة من حصيلة بعض المفكرين والباحثين الغربيّين لتكون شواهد حيّةً، نظر إليها على أنها ثمرة من ثمار الفكر الاستشراقي من أجل الكشف عن مساره، وكان الهدف الأول هو الإشارة إلى منهج: البناء والهدم، الذي انتهجه بعض المستشرقين المتأخرين وهو أن المستشرق يغرق القارىء في بحور الإطراء والمديح للإسلام والحضارة الإسلامية حتى يشعر القارىء أن هذا المديح والإطراء جاء عن حبٍّ واقتناع وإيمان ونزاهة موضوعية، ثم ليبدأ المستشرق بعد ذلك في عملية الهدم حيث يُجرّده بخبث أثناء تحليله، من كل صفاته ويُعير أو يخلق المعايير فيهدم ما بناه ويسقطه لبنة لبنة، كما يُشير المؤلف إلى خطر المنهج [الفيلولوجي] المتمثل في جوستاف فون جروتباوم وجيب، وروديي بارث فكانت نتائج أمثال تلك الدراسات الاستشراقية أن أثّر الغرب على العرب بأثرين مهمين:

1 - الشعور بمركب النقص الحضاري ومحاولة مواجهته.
2 - قبول ما أراده الغرب من مؤثرات داخل المجتمع الإسلامي والعربي تحت ستار أن من شروط النهضة والتقدم تَقَبُّل كل شيء غربي، واستشهد بقول المستشرق قمباري بأن الترك

مثلاً اعتقدوا أن التجديد ضروري لهم، وأن هناك ضعفاً شديداً عليهم من الخارج لقبول ما لا يمكن قبوله.

كما أن نيّة المستشرقين في النفاذ إلى أعماق الفكر الإسلامي، السيطرة على المفكرين العرب والمسلمين لإقناعهم بأن ادعاء العلم يعني تقليد كل ما هو غربي والتسليم به.

أما في الفصل الثالث، فيتطرق المؤلف إلى ما حاول المستشرقون الوصول إليه لتشويه أو النيل من الإسلام مثل إلصاق الطقوس العربية الجاهلية قبل الإسلام بالقرآن وترويج أن محمداً ما استطاع أن يبرز إلا بذكائه الحاد وتصوره الخلاّق بمعنى أن الإسلام هو من خلق وتصور محمد الذكي والممتلك لموهبة التصور والخلق الإبداعي وكذلك ما ذهب إليه غوليوم من تأكيد أن الإسلام يحوي مصادر يهودية ومسيحية.

ويستغرب المؤلف في هذا الفصل من أمر مُهم، وهو أن الفكر الغربي الذي تأثر بالمنهج الديكارتي لم يستطع هذا الفكر أن يرتفع إلى مستوى الموضوعية، كما أنه لم يستخدم المنهج المشار إليه في تخليص تراث الاستشراق القديم من الشوائب، كما أن إغراق بعض المستشرقين في تمجيد الأدب الجاهلي، وتحقيق نصوصه قُصد منه بالدرجة الأولى زرع حقنة الاعتزاز بالتراث الجاهلي، وكذلك البحث عن مصادر أدبية لإقحامها على صعيد المنهج الفيلولوجي بمقارنات تعسفية بنصوص الآيات القرآنية أو استخلاص الخيوط الواهية للتدليل على نظريات وافتراضات مقصودة لذاتها.

كما بحث المؤلف في دور ترجمة القرآن الكريم حيث ألح إلى بعض المؤلفين والمترجمين الذين اهتموا بترجمة وشرح القرآن، وكانت النتيجة أن تلك التراجم في أغلب أحوالها لا تلتزم بالدقة والفهم الصحيح، والتشويه والتزييف المتعمد. وبعد أن تأكد لدى الغرب أن القرآن هو سرُّ قوة المسلمين، وهو جامع شملهم، عكفوا على دراسته دراسة مُعمّقة ليستفيدوا منها في عملية التزييف والتشويش ضد الإسلام.

وحول التربية الفرنسية في شمال أفريقيا يتحدث الكتاب عن دور المستشرقين في دعم وتمكين الاستعمار الفرنسي في المغرب والجزائر وتونس عن طريق البرامج التعليمية والتثقيفية التي استهدفت نشر الثقافة الفرنسية على حساب اللغة العربية، وقد سارت هذه العملية في محورين:

الأول: تعميق الهوة بين البربر والعرب، بحجة أن البربر ليسوا عرباً.

والثاني: فرنسة البربر والعمل على كتابة لهجتهم المحلية المحكية بالحروف اللاتينية، مع السعي المتواصل لتنصيرهم. وقد قام الحاكم العام الفرنسي في المغرب الجنرال ليوتي بتبني هذه السياسة وصرف جهده وحياته لإنجاحها.

ويشير المؤلف أن أعظم الأسس التي ووُجهت بها الحضارة العربية في المغرب العربي:

1 - لجوء الإفرنسيين إلى إحياء تاريخ قرطاجنة.
2 - ترويج بأن البربر أصلهم أوروبي وأنهم كانوا نصارى.
3 - إشعار العرب بقصورهم وذلتهم أمام الحضارات القديمة التي ترمز لها ما بقي من آثارها.
4 - الوصول إلى المجتمع الاستيطاني الذي إذا لم يكن فرنسياً مائة بالمائة فإنه لا بدّ من أن يكون هجيناً أو مُدجّناً ومركباً تركيباً استعمارياً محضاً قابلاً للتلقي دونما مقاومة.

غير أن سياسة فرنسا هذه، كما يقول المؤلف - لم تستطيع إختراق الدين الإسلامي والبناء الثقافي العربي كما كانت تريد وتحلم، ويعكس ذلك التقرير السري الذي أرسله الجنرال ليوتي إلى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ 3 ديسمبر 1920 إذ جاء فيه:

إننا نكون واهمين جدَّ الوهم إذا اعتقدنا أن المغاربة لا يدركون أنهم موضوعون على هامش الحياة العامة فضلاً عن نمو روح العداء نحونا - ومن المؤكد أن هناك حركة فكرية آخذة في التكوين بجانبنا دون أن نحس بها فضلاً عن اجتماعات سرية، إن هذا كلّه سيتحول يوماً ما، وينتقل من حيّز الفكر إلى حيّز العمل فيحدث الانفجار.

وفي الفصل الذي يليه يتحدث المؤلف عن السياسة الاستشراقية في ليبيا التي اعتمدها الإيطاليون قبل وأثناء غزوهم الاستعماري، خاصة في حقلي التعليم والتبشير فقد لعبت المدارس الأجنبية والإرساليات التي أنشأتها الكنيسة الإيطالية دوراً خطيراً حيث تحولت إلى آلات سياسية طيّعة خدمت أهداف الاستعمار الثقافي والسياسي والديني، وقد بدأ التغلغل الثقافي إلى ليبيا منذ عام 1810 عندما استقر المبشرون الفرنسيسكان بطرابلس، وافتتحوا مدرسة إيطالية صغيرة للأطفال المسيحيين، وتلتها بعثة إخوان الراعي في عام 1846 وهي إرسالية كاثوليكية فأنشأت مدرسة للبنات، ثم في عام 1881 أنشأ الآباء الفرنسيسكان من إخوان مارس، مدرسة للبنين في طرابلس، ومنذ عام 1883 أصبحت المدارس الإيطالية تحت حماية الدولة

الإيطالية بشكل رسمي وعلني، وتعددت بعد ذلك المدارس الإيطالية في كل من طرابلس وبنغازي.

ويشير الباحث إلى أن إيطاليا هي وريثة الثقافات العدائية التي ارتسمت في العقلية المسيحية منذ القرون الوسطى، وبصفتها حامية لمركز المسيحية الديني في أرضها، فهي دائماً تحافظ على التاريخ التصادمي بكل ملابساته مع من يغايرها وضد من يناقض أهدافها، وإن الفكر المسيحي بكل تراكمه التاريخي ظلَّ يطبع الفلسفات الإيطالية طوال العصور الماضية، وأن إيطاليا عندما رسمت محاول التعليم في ليبيا قد تبنت فلسفة استعمارية وكانت المدرسة واجبها الأول، تأدية رسالتها هذه، كما أن الكنيسة الإيطالية بما لها من نفوذ تراكمي تاريخي على روح الفاشية العسكرية النامية وتطلعاتها منذ بداية هذا القرن كانت ترى أن المسيحي هو الإنسان الوحيد الذي يجب أن يتمتع بكامل حقوقه الإنسانية ذلك لأنه يمثّل الصفوة، فكان لزاماً عليه أن يرى في اللامسيحي سواء كان هرطقياً أو مسلماً الشخص الوضيع الفاسق الذي يقف على هامش المجتمع الإنساني ويجوز التنكيل به.

وبعد خمس سنوات فقط من بدء الغزو العسكري الإيطالي لليبيا بدأت الإدارة الإيطالية في تنفيذ مخططها الاستعماري في مجال التعليم، وقد بدأ كما يلي:

1 - ترغيب العرب الليبيين بإلحاق أبنائهم في المدارس الإيطالية.
2 - حُددت للمدارس الجديدة أغراض سياسية.
3 - انصباب الاهتمام على النشء الجديد كمخطط للغزو الفكري الثقافي.
4 - الارتياب والخوف من المدارس القرآنية.
5 - إعادة تقويم المدارس والمعاهد التي كانت موجودة في العهد التركي.

ثم تحدث الكتاب بشيء من التفصيل عن موضوع المدارس في العهد الإيطالي المخصصة فقط لأولاد الليبيين، وفي فصل خاص عن التبشير في ليبيا الذي جاء تحت عنوان [التبشير وهدف استشراقي]، يقول المؤلف بالخصوص: لقد اقترن الوجود الإيطالي في غزوة المسلح لليبيا سنة 1911 بفيالق على شكل بعثات تبشيرية دفعت بها الكنيسة الإيطالية إلى شمال أفريقيا لتحقيق صورة [مستعمرة المنفى].

وأن هذه البعثات التبشيرية ذات النزعات السياسية قد سبقت الجيوش المحتلة بزمن، وكسلسلة متصلة الحلقات، فقد فعلت إيطاليا في أسلوبها التبشيري كما فعلت فرنسا في تونس والجزائر والمغرب وقد جاء نشاطها:

1 - بدور الحضانة ورياض الأطفال.
2 - بالمدارس الابتدائية والاعدادية.
3 - بأعمال الخير والبر كالملاجىء للأيتام والفقراء.
4 - إنشاء مستشفيات ومصحات.

ولكن، كما يقول المؤلف، فقد ووجهت إيطاليا من قبل المواطنين المسلمين كرد فعل طبيعي لعملية التبشير والتنصير، بازدياد انتشار الزوايا الدينية والكتاتيب، والمدارس القرآنية وحلقات التدريس الإسلامي في المساجد، كما استقر في أذهان الناس أن كل طالب يدرس في المدارس الإيطالية ويتعلم فيها هو كافر وخارج عن دين الجماعة.

ثم يتحدث المؤلف في فصل خاص آخر عن الاستشراق الإيطالي في ليبيا، فيتعرض لأسماء عدد من المستشرقين الطليان ومؤلفاتهم التي درسوا فيها الحياة الليبية من كافة جوانبها: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بل لم يتركوا أي زاوية من زوايا هذه الحياة إلا وأشبعوها بحثاً وتنقيباً ومثال على ذلك تولي القائمقام [جينو تيللونتشي] إعداد تقرير مفصل عن عدد الكتاتيب والمدارس القرآنية في طرابلس وأسماء شيوخها وعدد طلاب كل كتّاب، هذا بالإضافة إلى صدور دراسات علمية عميقة قام بها، المستشرقون الإيطاليون: [نالّلينو، وبانيتا، وتشيزارو، وايتوري روسي، وبيقوينو، وسابرينللي، ولويجي سيرا]، وغيرهم وهؤلاء يعتبرون من علماء الاستشراق في إيطاليا. وقد كان لدراساتهم وبحوثهم المستفيضة عن ليبيا الأثر الملموس في تمكين المستعمرين الطليان في بسط سيطرتهم على البلاد.

ويتحدث المؤلف في الفصل الأخير عن مسؤولية الاستشراق حيث يرى أن أسلوب الاستشراق القديم قد أخذ يتبدل حيث شعر أن مسؤولية هذا الاستشراق أصبحت صعبة وقاسية ومعقدة خصوصاً بعد التطورات التي حدثت مؤخراً على الساحتين العربية والإسلامية، وإدراكهم قصورهم الذاتي وفشلهم، وإن دراسة علمية للعلاقات بين الشرق والغرب فيما يتعلق بمسؤولية الاستشراق الجديدة سوف تكشف القناع الذي ظل يخبّىء الأهداف المستترة وراءه، ومن هنا علينا أن نعلم أن المواقف التي اتخذها الاستشراق لم تكن نتيجةً في حدِّ ذاتها للإمبريالية

والاستعمار وإنما هي السبب المباشر لهذا الاستعمار وهي القواعد النظرية والمرتكزات الأساسية لهذا الاستعمار وسبب من أسباب مبرراته وتعليلاته.

ويؤكد المؤلف أن الاستشراق لم ينته وإنما غيّر ثوبه القديم ولبس زيّاً بل أزياء جديدة خصوصاً بعد أن أصبحت كلمة مستشرق تثير اشمئزاز شعوب الشرق لعلاقاتها القديمة ومساوئها تجاه الشعوب، فالتحول الأخير إذن بديل يحمل نفس الجوهرونفس الروح لأن هذا البديل ظل على سياساته القديمة وهي العداء الكامل والدعاية المعادية لشعوب الشرق. ويُدرج الباحث الأستاذ المسلاتي عدداً من الكتاب والمفكرين العرب الذين يرى أنهم سقطوا في شراك الاستشراق الغربي وهم الذين سماهم مستشرقي المشرق والذين لا يقل دورهم التخريبي سواء على الصعيد الإسلامي أو القومي العربي عن المستشرقين الأوروبيين. وفي خاتمة الكتاب يستعرض المؤلف بإيجاز أهداف الاستشراق قديماً وحديثاً والتي تندرج في البنود التالية: أهداف دينية، واقتصادية وعلمية وسياسية. واختتم هذا العرض السريع لكتاب الاستشراق السياسي الذي لا يمكن أن أدعي أن هذا العرض قد أوفاه حقه أو تضمن كل الأفكار والمعلومات التي حملتها صفحاته، بفقرة أوردها الأستاذ المؤلف في سياق كتابه فيها كما أرى، ردٌّ شاف كاف عن كل محاولات التحوير والتزيف الاستشراقي، يقول المؤلف: إذا كان الإسلام، كما يراه أولئك المستشرقون، على ضوء ذلك النسق العجيب من المتناقضات، فلماذا يخافونه، وإذا كانت المجتمعات العربية لا يربطها رابط سواء كان اللغة أو الدين أو الدم الواحد فلماذا يخافونها؟؟ ولماذا لا يتركونها لتناقضاتها لتحل نفسها طوائف وطرائق قدداً، ولتتمزق من ذات نفسها؟؟ وإذا كان مستقبلها لا يوحي بوجود ثقافة مشتركة هي عمودها الفقري فلماذا يقف المنظّرون جهودهم لإجهاضها؟؟

وبعد هذا الطواف في كتاب الاستشراق السياسي ثمة هناك ملاحظات سيلمسها القارىء عند مطالعته لهذا الكتاب:

1 ـ سعة إطلاع الباحث فيما يتعلق بموضوعه وكل ما يصب في جدوله، يوضح ذلك غزارة المعلومات التي ذخر بها الكتاب كذلك مجموعة المصادر والمراجع والوثائق التي اعتمدها المؤلف في بناء كتابه وإن كان لم يفرد لهذه المصادر والمراجع حيزاً خاصاً بها، في الصفحات الأخيرة من الكتاب كما جرت العادة.

2 ـ صدق المؤلف في التعامل مع موضوعه وهو الاستشراق والتصدي له، وهو نابع ولا شك من قوة عقيدة المسلاتي الاسلامية واعتزازه بانتمائه العربي.

3 ـ الأسلوب الأدبي، مع التمكن الجيد من اللغة العربية اللذين نسج بهما سطور كتابه.

4 ـ سلامة البيان وقوة الحجة اللتين امتلكهما المؤلف، وتعليلات المستشرقين التي لا تخلو قطعاً من الغرض غير المنزه خصوصاً فيما يتعلق بالإسلام والقرآن والعروبة. غير أن هناك بعض المآخذ التي رأيتها في هذا الكتاب منها أن الفصول الأولى من الكتاب كانت متينة في بنائها وفي عرضها، الأمر الذي افتقرت إليه، كما اعتقد، الفصول الأخيرة، ولعل مردّ ذلك فتور همة المؤلف في الصفحات الأخيرة بعد الجهد المشكور الذي بذله في الصفحات السابقة أو ربما يعود إلى فقر يديه من الوثائق والمصادر التي كان يحتاجها للتدليل على وجهات نظره، وقد لمست شيئاً من الاضطراب المؤسف في العرض بالفصل الخاص بعمليات التعليم والتبشير في ليبيا إبان الاستعمار الإيطالي لها. إذ نرى المؤلف ينتقل فجأة من ليبيا ليتحدث عن هاتين العمليتين في تونس والجزائر والمغرب، مع أنه أفرد فصلاً خاصاً للحديث عن التعليم والتبشير في هذه الأقطار. كما أن الأستاذ المسلاتي خلط بين رجال الدين المبشرين وبين العملاء الجواسيس الذين يرسلون من قبل مخابرات الدول الاستعمارية لجلب المعلومات وتقصّي ومتابعة شؤون المناطق التي يروم المستعمرون احتلالها، وعادة ما يكون هؤلاء من الأفّاقين متوسطي الثقافة واشتهروا بالمكر والذكاء والدهاء بينما المبشرون من رجال الدين المسيحي يخضعون لعملية انتقاء شديدة قبل إرسالهم، حيث يجب أن يتوفر فيهم تفقه كامل بتعاليم الكنيسة المسيحية وثقافة عامة جيدة مع قدرة على التحمل والتجلد والتكيف على العيش في مستويات ومناخات مختلفة، ولا شك فيه أن المبشر كان يقوم بجانب عمله الدعائي للمسيحية، بدور الجاسوس وملتقط المعلومات ولا أعتقد أن جاسوساً رخيصاً قادراً على القيام بعملية التبشير بجانب عمله الأساسي. والذي دفعني لهذا القول إقحام الأخ الباحث اسم الجاسوس والعميل الفرنسي ألكسندر دي كرافت الذي انتحل اسم الحاج اسكندر وادعى أنه مسلم من حجاج البيت الحرام، أقحمه في الفصل الذي عنونه (التبشير في الصحراء).

كما أنني قد لا أتفق مع الأخ الباحث في بعض ما أورده عن المستشرقين والاستشراق وحكمه المعمم عليهم، فهو لا يرى أي جوانب إيجابية في الاستشراق فالذين هدتهم فطرتهم السليمة ليقبلوا على المغامرة والبحث ويقبلوا على الاستشراق بدافع حب العلم والاطلاع على دراسة الحضارات المشرقية هم قليلون جداً، وحتى هؤلاء ذوي الصحائف البيض، لم يُسمع عنهم كثيراً ولم يشتهروا، لأن مجتمعاتهم نبذتهم وخنقت أصواتهم، وإنني شخصياً أوافق الباحث بأن أعداداً من المستشرقين كانوا معرضين وكانوا خاضعين لسياسة بلادهم الاستعمارية التوسعية، لكن المنصفين أو قل الطيبين منهم ليسوا قليلين، وفي كثير من الأحيان نجد أنفسنا حتى مع هؤلاء الطيبين على خلاف كامل في الرأي أو النظرة لموضوع أو لموقف ما، وأعتقد أن هذا الخلاف في النظرة أو الرأي لا يعود لغرض خبيث في وجدان المستشرق الباحث بقدر ما يكون مصدره اختلاف الموقع في النظر لهذا الحدث أو ذاك الموقف، وكما أرى، ليس من الصحيح دائماً أن نطلب من الآخرين، خاصة من الغرب الأوروبي، أن يتقمصوا شخصية العربي المسلم، بالكامل حين يتحدثون أو يكتبون عن تاريخنا وديننا وواقعنا، وفق ما نراه ونعتقده ونعيشه نحن العرب المسلمين.

ومن ناحية ثانية كنت أودُّ من الأخ الباحث، من باب الإنصاف واستكمالاً لبحثه، أن يرفق بسلبيات الاستشراق شيئاً من إيجابياته، ولا أعتقد ان الأستاذ المسلاتي يرى حقيقة أن الاستشراق كله شرٌ وفساد رأي وعمل، ولا أخاله ينكر أنَّ كمَّاً كبيراً من علومنا وأعلام حضارتنا، لم نعرفه إلا بعد أن أزاح عدد من المستشرقين المنصفين عنه تراب الإهمال والنسيان، وأكاد أقول بل العُقوق والنكران، منا نحن العرب ونحن المسلمين، ولعل آخر ما عرَّفنا به الاستشراق الغربي، على حدّ علمي، هو واحد من عمالقة العرب في مضمار علوم البحار والملاحة وأقصد أحمد بن ماجد الذي تجاهلته كافة كتب التراجم العربية التي ترجمت لآلاف من النكرات والعاديين وأسقطت ابن ماجد، حتى جاء في العقد الثاني من هذا القرن المستشرق الفرنسي (جابريل فرنان)، ليلفت انتباهنا إليه حين عثر له وسط الرُكام على مخطوطين نادرين تحدث فيهما بشكل علمي مذهل عن أدق المعلومات والعلوم المتعلقة بالبحر والمناخ والملاحة، فقام هذا المستشرق بنشر هذين المخطوطين مع مقدمة أفاض فيها إشادة، وتعظيماً بهذا العالم البحّار العربي المسلم، مؤكداً بأن قومه الأوروبيين ما كانوا ليتقدموا في اختراق المحيطات لولا جهود العرب وعلى رأسهم ابن ماجد.

والذي أريد أن أخلص إليه هو أنني حقاً مع الأستاذ المسلاتي بأن الاستشراق بشكله العام مدانٌ وأنه ساهم إلى حد كبير في تشويه حقائق تاريخنا وديننا وأدخل الإرباك والاضطراب في عقولنا وحياتنا، ولكن حين نتصدى لعملية تقويمه يجب أن نترك حيّزاً لإيجابياته حتى يستقيم الأمر. مع يقيني الثابت أن الاستشراق الملوث قد فشل فشلاً ذريعاً قديماً وحديثاً. رغم كل جهوده واستماتاته، من أن ينال من الإسلام العظيم أو يمس بناءنا القومي، وكل ما نجح في خلقه فقاعات هوائية. هنا وهناك تكبر وتكبر فإذا بها فجأة تنفجر من ذاتها لتصبح بلا عين أو حتى أثر، وإذا كان ثمة انتكاسات فهي مصدرها نحن كمسلمين وعرب، فالإسلام الذي لم تترك المسيحية واليهودية سبيلاً إلا واتبعته ولا عملاً رخيصاً إلا ومارسته، للنيل من هذا الدين الحنيف، وقف شامخاً متحدياً، بل أخذ يقتحم قلاع أعدائه ومقاتليه، الأمر الذي جعل (لوبين) وهو من أكبر العنصريين الفرنسيين الحاقدين على الإسلام يصرخ هلعاً من أن الكارثة ستحيق بالمسيحيين في فرنسا إذا لم يوضع حد لاعتناق الإفرنسيين المتواصل للإسلام، حيث غدا الدين الثاني في فرنسا حجماً وفاعلية. وفي أمريكا لم يكن عدد المسلمين في الولايات المتحدة قبل خمسين سنة فقط يتعدى بضعة آلاف، هم من العرب والمسلمين الذين تركوا بلادهم واستقروا في أمريكا، فإذا بهذا الرقم يرتفع ليصبح قرابة ستة ملايين مسلم من الأمريكيين الأقحاح، كانوا مسيحيين ثم اختاروا الدين الإسلامي، وهكذا في جميع أصقاع العالم، أما الدعوات الإقليمية التي روّج لها أعداء العروبة، فلم تستطع رغم كل الجهود والمخططات والأحوال أن تجد لها موطىء قدم أو كيان يُعتدّ به، وما يجري في لبنان الآن خير مثال وشاهد، فالدعوة الشعوبية التي سميت ظلماً بالفينيقية رغم الدعم اللامحدود التي حظيت به من أوروبا وأمريكا وإسرائيل، هي الآن في طريق الخمود والاضمحلال، وعاد يسطع اسم لبنان العربي بشكل قوي.

هذه جملة من الملاحظات التي أثارها في نفسي كتاب الإستشراق السياسي للأستاذ الباحث مصطفى نصر المسلاتي، ومرة أخرى أقول إنه من الكتب القيمة، وإضافة جيدة لمكتبتنا العربية الإسلامية، يستحق القراءة والتمعن بكل ما جاء فيه.